"يوم في نيسان" آخر العنقود في ثلاثية جاد الحاج عن الحرب الأهلية اللبنانية

بيروت - سلوى نصر

في ختام ثلاثيته الروائية عن الحرب الاهلية اللبنانية يعود الشاعر والروائي جاد الحاج الى جذوره. يغترب عن غرباته الكثيرة ويسترد مناخات وأحداثاً وشخصيات ذات صلة وثيقة بتاريخ وطنه، وذلك عبر ثلاثة نماذج تعكس وجوهاً لفنانين وحرفيين تحت وطأة المتغيرات العميقة التي ألمّت بلبنان في تلك المرحلة. بعد "الهجرة الاخيرة" و "الحنبلاسة " تحمل الرواية الجديدة عنوان "يوم في نيسان" الشهر الذي وصفه ت.س.اليوت بـ"أقسى الشهور" واعتبره اللبنانيون علقم البداية لمقتلة أهلية دامت 16 سنة، ناهيك عن كونه ذكرى المجزرة التاريخية بحق الأرمن.

لاقت الروايتان السابقتان إهتماماً ملحوظاً، وإقبالاً لدى القراء في لبنان وأستراليا وبريطانيا وكندا حيث جرت لقاءات وتواقيع وحلقات مناقشة حولهما. لكن، في المحصلة النهائية، تبقى الدراسة الأكاديمية مرجعاً مكتمل التوازن والجدية يمكن الركون إليه لاستشفاف القيمة الأدبية والفنية لهذين العملين، ومستقبلاً لـ"يوم في نيسان" التي صدرت أخيراً في لندن عن دار "كوارتيت".

سيرين حوت، أستاذة الأدب الإنكليزي في الجامعة الأميركية في بيروت، أعدت دراسة مستفيضة، نشرتها مجلة "بوست كولونيال رايتنغ" البريطانية تحت عنوان: "الهجرة الأخيرة"- نموذج أول لأدب الإنتشار اللبناني المعاصر- وفيها برهنت الحوت عن وجود فرادة أدبية لتلك الرواية، واعتبرتها عملاً يختلف في الجوهر عن أعمال روائيين لبنانيين في الأنكليزية ، ممن اتسمت كتاباتهم بعنصري الحنين والنفي.

تميزت " الهجرة الأخيرة " بنجوى ساخطة عما آلت اليه أحوال لبنان، عوضاً عن الاشواق الكئيبة الرائجة في ما يسمى "أدب المهجر"، بطلها ، أشرف سعد، كان قادراً على التواصل بسهولة مع البلدان التي لجأ اليها. لم يكن غريباً كالمغتربين، ولا منفياً كالمشتتين، إن في بريطانيا أو أستراليا ، بل واطن وانضوى وانصهر من دون ان يفقد تواصله مع بلده وصلته بأهله وبهمومهم: لبناني كونيّ، لا يذوي شوقاً الى العودة، ولا يوصي بدفنه في ثرى الجدود، بل يحن الى أرضه من دون اكتئاب أو شعور بالتهميش والغربة. وبكلام أكثر دقة فأن أشرف، على غرار المؤلف، مهجريّ يفتقد وطنه وهو فيه، ويحن اليه حنين المقهور والمغضب لشدة ما يحبه، سواء كان فيه اوخارجه. وعليه بنت الحوت نظريتها التي تفصل رواية المنفى والاغتراب عن رواية الانتشار او الـ"دياسبورا".

بعد حقبة على صدور دراسة سيرين الحوت جاء في أطروحة أعدتها طالبة الدكتوراه أسمى نجيب، من جامعة إكسيتر البريطانية، فصل ناقشت فيه نظرية الحوت محاولة نقض فرادة

أشرف سعد، فهو في نظرها لا يختلف عن ابطال ربيع علم الدين ، وراوي حاج، وندى أعور جرّار وغيرهم من روائيي لبنان بالأنكليزية - إلا في تناقضاته، وهذه، بنظرها، لا تكفي لفرزه على حدة. والواقع أن أسمى نجيب نجحت في البرهان عن نظريتها، وذلك من غير ان تسقط مضامين البحث المعمق الذي قامت به الحوت. عادت الى نص الرواية بعين ثاقبة ، فوجدت ان أشرف يكشف عن منفاه في تجليات واضحة ابرزها رجوعه المستمر الى الماضي في كل لفتة وسانحة. وهو في حال تجاذب دائم بين ضفتي وجوده ، فما محاولاته الهرب الى الأمام مستعيضاً عن الوطن المغيّب بامرأة يسكن اليها، كأي غجري (أوبدوي) تائه، سوى تظهير لوطأة غربته وتوكيد غير مباشر على منفاه. وتستشهد أسمى نجيب بمقاطع عاطفية من "الهجرة الأخيرة" يبدو فيها أشرف مستجيراً من الرمضاء بالنار، فالقدر ينتزع منه المرأة، كلير، التي أحبها بكل جوارحه، ، والمرأة البديلة، جيني، التي سكن اليها، فاذا بصدها يرده الى صواب لطالما عانده متشبثاً بوهم هو استبدال الوطن بالحب.

بعد خمس سنوات على صدور "الهجرة الأخيرة" عالج الكاتب في روايته الثانية بالانكليزية "الحنبلاسة" موضوع الحرب الأهلية من زاوية الارتباط العضوي بالأرض، فجاء بطله الجديد آدم - الجامعي المصرّ على العيش في ريف فقير- مغايراً في الظاهر لأشرف الصحافي والرحالة. اما الحقيقة فهي أن "الحنبلاسة"- أو شجرة حب الآس ذات الثمر الوفير- جعلت لآدم صنواً ، هو أناه الثانية ، فاعور الفتى الموهوب المتمرّد ، الذي يهرع الى فنزويلا هرباً من صلف الحرب ووحشيتها، حيث ينتظره حب مستحيل. الا ان هذا الحب سرعان ما قلب حياته رأساً على عقب وردّه كسير الروح الى قريته وقد أمست مجروفة بسيول الحرب. وبصرف النظر عن المطالعات الصحافية العجلى ، لم يتنبه الدارسون بعد الى الأستمرارية الموضوعية في الروايتين. فكلتاهما تعالج الهجرة من موقع الاقتلاع القسري، وتتصدى لتعدد ردات الفعل تجاهها ، وتفاوت التعايش معها بحسب ظروف المهاجر واوضاعه الأجتماعية والثقافية والنفسية. صحيح أن الحاج مهتم بشخصيات لا تتمتع بغرابات برّاقة ، لكنه يسبر من خلالها معضلة الانتماء بكل وجوهه في الشرط الأنساني العريض. شخصيات "نمطية" قال ناقد مستعجل و"عادية جداً تجدها في كل مكان" أفتى آخر. وما توقف اياً منهما عند التحدي الفني الذي يواجه الكاتب في تخصيب شخصيات "عادية" أو "نمطية" وملئها بالحياة النابضة كي تمثل أمام القارئ بلحمها ودمها. كثر هم القراء الذين كتبوا على صفحة ناشر "الحنبلاسة" أن الرواية أدخلتهم عالماً لطالما خالوه ولى وانقضى، وان أطياف ذلك العالم رافقتهم طويلاً بعدما أنهوا المطالعة. الا ان "الحنبلاسة" لم تحظ بعد من النقد ما يوازي ما حظيت به "الهجرة الأخيرة".

وينهي جاد الحاج ثلاثيته بـ "يوم في نيسان" حيث يرصد حراك المبدعين قبل الحرب الأهلية وخلالها- كم كانوا متحمسين للتغيير، ثائرين على التردي السياسي والإجتماعي، محبطين بعد فشل محاولاتهم وقف التدهور في إتجاه الحرب- وكيف انفرط عقدهم وتشتتوا نهب الرياح الأربع... راوي القصة مصور صحافي يدعى كريكور كريكوريان المعروف بـ "كوكو"،

أرمني مقتلع بالوراثة في عائلة عرفت الإبادة العنصرية والهجرة القسرية مثلما عرفها الفلسطينيون الذين جاء ليصور جثثهم في الثالث عشر من نيسان سنة 1975. تبدأ الرواية بعد سنتين بالضبط من ذلك التاريخ، فكأن الكاتب تقصد تقريب الفاجعة بتغريبها، ودلف منها الى طرح السؤال الإنتمائي من جديد، وهذه المرة على أرض الوطن، لا من خارجه. فكوكو، وريث حالتي المنفى والإغتراب، يواجه في لحظة حاسمة معضلة الإنتماء الى هويته اللبنانية: نراه يقف أمام أشلاء بوسطة عين الرمانة، عاجزاً عن أداء مهمته كمصور صحافي محترف، لأن القتلى المحدقين فى الفراغ ذكروه بصور الضحايا الأرمن في مجزرة 1915، فخال نفسه واحداً منهم. أحس ان هوية البلد الذي احتضنه ليست هويته الحقيقية ما دام مرتكبو تلك المجزرة فعلوها بحجة الدفاع عن لبنان ... هنا تبرز غربة أخرى في معادلة الإقتلاع والنفي ، غربة المهمشين في وطنهم، الرافضين منطق الموت على الهوية، أو القتل بأسمها. ولكن كوكو ليس أقوى شخصيات "يوم في نيسان"على الصعيد الإبداعي أو بالنسبة الى إشكالية الإنتماء . بل لعله يشبه رسولاً يحمل بريداً مكتظاً بمشاهد ومواقف وأحداث تصب كلها في بوتقة مواجهة الفرد لقوى عدائية لا حول له على قهرها ولا قوة لديه على إحتمالها. صنوه في الرواية، الكاتب والممثل والمخرج نادر أبي نادر، قمة السقوط في هوة تدمير الذات، ربما لأن طاقته وأحلامه إرتطمت بواقع لم يتوقعه بعد عودته من الدراسة في الخارج. عاد من بولندا ممتلىء الرؤى بمشاريع فنية لم يكتب لها ان تولد إلا مجهضة، لتضيع سدى في فوضى الحرب- مثقف كبير ، موهوب، واعد، طموح ، إنتحاري في صراعه مع جسده ومع روحه الخائبين على السواء.

وبريشة خاطفة، تصويرية، ومقاطع شعرية خالصة، يرسم جاد الحاج أشخاص "يوم في نيسان" ومناخاتها، فهل من قلم مسؤول يفي هذا العمل حقه من النقد؟

الحياة 8 December 2011